ISSN 2227-9202

مجلة

بحوث جامعة حلب

سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية

مجلة دورية محكمة تصدر عن جامعة حلب

العدد الرابع والسبعون لعام 2011

عام الاصدار :2016

سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية والتربوية

رئيس هيئة التحرير

أ.د كمال خضري

نائب رئيس الجامعة لشؤون البحث العلمي والدراسات العليا

مدير التحرير

أ.د.نوار كعدان – أ.د.أحمد زياد محبك

هيئة التحرير

أ.د. صلاح كزارة	أ.د. عيسى العاكوب	أ.د. محمد غسان دهان
أ.د. أحمد القطب	د محمد العبد الله	أ.د بلال صفي الدين

التنضيد والاخراج

م.رامة ملقي

ماورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو سياسة جامعة حلب

المحتوى

د. محمد قاسم عبد الله د. عبد الرحمن أحمد عجان	اتجاهات أعضاء هيئة التدريس نحو درجة التزام طلبة الجامعة بأخلاقيات التعلم	13
د. محمد قاسم عبد الله سماح ممدوح القدور	فعالية الذات الأكاديمية وعلاقتها بالتحصيل الدراسي دراسة ميدانية على عينة من طلاب مدرسة المتفوقين والمدارس الحكومية في محافظة إدلب	29
د. ظافر يوسف باكير محمد علي	أشكال من بلاغة تقديم الخبر جوازاً في شعر إيليّا أبو ماضي	47
د. محمّد حسن عبد المحسن زهراء النّجار	الأنساق الثّقافيّة الحديثة في مفهوم الشّعر رسائل الأدباء الخاصّة أنموذجًا	63
د. أسماء معيكل سميرة حنّان	تجليات الراوي السردية في شعر شوقي بغدادي	83
د. توفيق داوود هويدا عبد الأحد	تمكين المرأة مقاربة "تسوية"	103
د. محمد قاسم عبد الله هديل قباني	مفهوم الذات وعلاقته بالوحدة النفسية دراسة ميدانية على عينة من الأطفال اللقطاء في إحدى دور الإيواء في محافظة حلب	123
د. حسين بيوض منى عبد الهادي	نشأة الشعر العذري دراسة تاريخية	141
د. محمد يوسف الشربجي محمد كامل قره بللي	منهج نقد الحديث عند الحافظ الذهبي (ت 748هـ)"نقدُه أحاديثَ في «صحيح مسلم» أُنْمُوذَجاً"	155
د. سعد الدين كليب أمل نجّار	مفهوم التجربة الجماليّة	177
د. سعد الدين كليب أمل نجّار	رموز التجربة الجمالية في شعر علي الناصر	195
د.عيسى العاكوب إيمان معاز	الأسرار البلاغية والإعجازية للحذف في القرآن الكريم في الدِّراسات البيانيّة الحديثة	215
د. عيسى العاكوب إيمان معاز	المعاني البلاغيّة والجمالية للتَّقديم والتَّأخير في القرآن الكريم في الدِّراسات البيانيّة الحديثة	235

د. فاضل عبد الله حنا	دراسة مقارنة لأهمية الخدمات التي تقدمها مراكز مصادر التعلّم في جامعتي دمشق والبعث من وجهة نظر طلبة كلية التربية في الجامعتين	253
د. مصطفى عثمان نور شريّف	لغات الأقاليم العربية في مؤلّفات الأدب الجغرافي العربي (كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي(ـ 390) نموذجًا)	277
د. فاروق اسليم عبد الله تريسي	صورة (الذات) عند صخر الغَ في مشهد الرثاء	295
د. فاروق اسليم عبد الله تريسي	مواقف (الذات) من (الآخر) عند الشعراء الصعاليك	315
د. جورج ساعور لينا ميشيل توما	دور اللغة الأولى في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية	337
د. صالح الخطيب	الاختبار الوطني للغة الإنكليزية: مرحلة التصمي	339
د. محمد حاج محمد	أوديب زمن وهوية	341

مواقف (الذات) من (الآخر) عند الشعراء الصعاليك

فاروق اسليم، عبد الله تريسي*

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حلب

* طالب دراسات عليا (ماجستير)

الملخّص

يعرض هذا البحث ثنائية (الذات/ الآخر)[1] في المجتمع الجاهلي، ويتناول مواقف الشعراء الصعاليك من (الآخر)؛ إذ شكّل الشعراء الصعاليك (ذاتاً) جديدة تقابل هذا المجتمع، لكنّهم كانوا قَبْلُ أفراداً من (ذات القبيلة/ المجتمع)، ثم استقلّوا بأنفسهم عنه. وبين كونهم أفراداً قَبَليّين وكونهم صعاليكَ مراحل زمنية تخلّلتها ثلاثة مواقف من التعامل بينهم وبين المجتمع الجاهلي، فبدأت علاقتهم بـ (الآخر/ القبيلة) بموافقته، والتعبير عنه، ونصرته، وكانوا في هذا الموقف يعبّرون عن امتزاجٍ بين (الذات) و(الآخر) بشكل عميق. ثم انتقلت علاقتهم به إلى مرحلة وسطى تعرّض فيها انتماؤهم إلى القبيلة إلى مراحل من العزلة عن (الآخر)، من القلق والتذبذب، نتيجة تعاملاتٍ معيّنة بين الفريقين، دفعت بهم إلى التفكير في الانفصال عن (الآخر)، والاستقلال بذاتهم عنه. وانتهى الأمر في الموقف الثالث، بمقاومة (الآخر)، والخروج عليه، إلى (ذاتهم) الجديدة التي ارتضوها.

المقدّمة

تُعدُّ ثنائية (الأنا/ الآخر) في المجتمع الجاهلي ذات خصوصيةٍ واضحة وعميقة في الآن نفسه، لارتباطها بتركيبة المجتمع الجاهلي القائمة على مركزية القبيلة وتمحور الأفراد حول انتمائهم إليها، وعملهم من أجلها، ونطقهم بلسانها،

ورد البحث للمجلة بتاريخ 2011/2/16م

قبل للنشر بتاريخ 2011/4/14م

(1) تعني لفظة (الأنا The Ego) الفرد من (الذات The Self)؛ لأنّ (الذات) تدلّ على جماعة. وسنستخدم المصطلحين في بحثنا كلاً حسب موطنه، فـ (الأنا) للصعلوك، و(الذات) للصعاليك، أو لمفهوم الصعلكة.

وفخرهم بمآثرها، وغزوهم لضمان أمنها وبقائها. وكانت العصبيّة القبلية تشكّل وعي الفرد الجاهلي، كما تشكّل هويةَ المجتمع الجاهلي؛ لذلك كانت هذه التركيبة مسؤولة ((عن وجود هذه الإشكالية التي تتسم بذوبان الذات الفردية في الذات الجماعية)) [94/1]. وقد تظهر الذات الفردية في بعض الأحيان، لكنّها تبقى في إطار فردية القبيلة، لا فردية الفرد.

إشكالية (الأنا) و(الآخر) في المجتمع الجاهلي

في ضوء هذه الإشكالية وخصوصيتها في المجتمع الجاهلي، قسّم بعض الباحثين الشعراء الجاهليين إلى مذاهب استناداً إلى قربهم أو بعدهم من ذات القبيلة؛ هي: المذهب القبلي، الذي ترتبط فيه ذوات أصحابه بالقبيلة، وهؤلاء تغيب ذاتهم الشاعرة عن اتجاهاتها الشخصية، وتعبّر عن ذات القبيلة، فتتحوّل (الأنا) – عندهم– إلى (الآخر) تماماً. والمذهب الفردي، الذي غلبت فيه قضايا أصحابه الشخصية على قضايا المجتمع والقبيلة، غير أنّ ذواتهم كانت خاضعة لعقد اجتماعي بين الشاعر والقبيلة، تحوّل فيما بعدُ إلى عقد فني. والمذهب الموغل في الفردية، أو (المتفرّد)، الذي بالغ أصحابه في تأكيد الفردية بإعلان الخروج على النظام القبلي من حيث الشكل والمضمون، نتيجة الانتقال من الوعي العصبي إلى الوعي الإنساني [57/2 و5/3–9]، كالشعراء الصعاليك الذين خرجوا على قيم المجتمع القبلي، ثم خرجوا بفنّهم عن فنّ ذلك المجتمع، وكانت مفارقتهم للنسيج الفني الاجتماعي في هذا الجانب واضحة ومشهورة[1].

وقد كان الشعراء الصعاليك أكثر وعياً للوجود الإنساني وَلِكُنْه الذات الإنسانية من غيرهم، وكان ثمة جدلٌ بين العصبية القبلية القائمة على الدمِ والوعيِ الفرديِّ الإنسانيِّ لديهم، الذي يحمل مضموناً أخلاقياً، جعل – أي الجدل – أنفسَهم أكثرَ حساسيةً في نشدان المثل الأعلى للقيم في المجتمع الجاهلي [3/3–4].

(1) نشير هنا إلى كلام الدارسين على خصائص شعر الصعاليك وامتيازه عن مجمل شعر الجاهليين؛ إذ كان يتسم بأنّ أغلبه شعر مقطّعات لا مطوّلات، وبأنه لا مقدمات طللية فيه، وبأنّه يتّسم بالواقعية في مضمونه وتصويره للحياة. [259/4 و 359/5].

وقد مثّلت القيم الإنسانية – منذ الأزل – بذورَ خير في نفس الإنسان، فرأى في قيم الحقّ والخير والكرم والشجاعة والنصرة، وأمثالها، معانيَ تنمّ على رفعته وسموّ خلقه وعلوّ همّته. غير أنّ هناك معطيات أخرى – في داخل النفس الإنسانية، أو من خارجها – تقتضي التوقف وكبح جماح العاطفة في تطبيق القيم [6/2]؛ إذ قد تدرك النفس – مثلاً – أنَّ الكرم سيقود إلى الجوع، والشجاعةَ ستؤدي إلى الموت، ونحو ذلك، فتنشأ لدى النفس نقائض لهذه القيم، كالبخل والتقاعس والضَّعْف... في محاولة لإنشاء توازنٍ ما يرتئيه الإنسان ضمن شرطه التاريخي والجغرافي في الزمان والمكان والمجتمع.

من هنا برزت مسألةُ (النسبيّة) في النظر إلى القيمة، وفي تطبيقها، وتقييدُ فكرة الإيجابية حول بعض القيم، وقد يبلغ الأمر حدّ (خَرْقِ القيمة) وإسقاطها. فلم تعد القيم تقليداً لا يُخالَف، وإنّما صار يُنظر إليها بقدر كبير من النسبية يحدّده صاحب الشأن في هذه القيمة؛ ولذا كان البعدُ القيميُّ هو الأبرزَ في رؤية الصعاليك إلى أنفسهم والمجتمع وباقي أفراد القبيلة، لارتباط القيم نفسها بدواخل النفس الإنسانية ومتطلباتها الحياتيّة. إنَّ ادعاءَ القبيلة – ممثّلةً في زعمائها – قيمَ الكرم والجود والسخاء والحماية دون التنفيذ الفعلي له، والتمييزَ بين الأفراد الشرفاء والسادة وغيرهم من أبناء القبيلة، وانتقاصَ بعضهم للونه –وإنْ كان ابناً صريحاً للقبيلة[1] – يُعَدّ في نظرهم إخلالاً بالميثاق القبلي بين القبيلة وأفرادها، فلم يكن في أصل التواضع الإنساني أن يؤاخذ الإنسان على لونه أو شكله أو عاهةٍ أصابته لا يَدَ له فيها، ثم جاء المتعصّبون من سادة القبيلة لجنسهم أو لعرقهم – وهم أقلُّ وعياً إنسانياً من الصعاليك – ليقرّروا الخلط بين العبد الأسود الذي يشترونه، وابنِهم الصريح الذي يشاكله في اللون لا في الدم، فينالَه ما ينال العبدَ من الامتهان والتقريع والترفع عليه، وهذا ظلم غير مقبول في منطق إنسانيتهم.

لقد شكّل الصعاليك (ذاتاً) جديدة في المجتمع الجاهلي، أو (نحن) مقابل

(1) نعني هنا الهجناء مثلاً، فآباؤهم صرحاء في القبيلة، والأصل أن ينسبوا إلى آبائهم ولا يشاب نسبهم بأمّهاتهم، غير أنّ البعض كان ينظر إليهم بشيء من الانتقاص؛ لألوانهم التي ورثوها عن أمهاتهم.

(هم)، ذلك أنَّ الصعلكة كانت من أبرز الظواهر الاجتماعية في ذلك العصر، وهي تنفرد بخصوصية تميزها من غيرها من ظواهر العصر الجاهلي، ألا وهي خروجها على الفكرة الناظمة للبنية الاجتماعية الجاهلية؛ فالانتماء القبلي، والولاء له، وما يتصل بهما من حماية حقيقة القبيلة، والتعصّب له على نحو واسع، أمورٌ فقدت كثيراً من معناها العرفي الاجتماعي لدى (نحن/ ذات) الصعاليك [116/4]؛ لأنّها أصبحت من ثقافة (الآخر) وهويّته، وحلّت محلّها قيم جديدة سلك إليها الصعاليك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ويمكن لنا أن نرى في شعر الصعاليك ثلاثة مواقف رئيسة من (الآخر/ القبيلة)، استناداً إلى ما دعوا إليه، وما خالفوا القبيلة به، وهذه المواقف هي:

1) موافقة الآخر (الانتماء إلى القبيلة):

كان بعض الصعاليك قد فقدوا انتماءهم إلى قبائلهم، وتحلّلوا من روابط المجتمع وعُراه، ولَم يبق لَهم ما يربطهم به غير المنفعة[51/5]، بل إنَّ بعضهم بدأ يسلك مسالك عدائية واضحة تجاه قومه، فيجمع رفاقه من الشذّاذ والفتّاك[1]، فيغير على قومه (السابقين)، كابن الحدادية وحاجز الأزدي والشنفرى [117/4 و29/7 و145/14/8 و31/9]. غير أنّ هذه القاعدة لا تطّرد على إطلاقها؛ إذ إنَّ بعض الصعاليك لم يفعل ذلك كالسليك، وعروة بن الورد الذي لم يخرج من قومه أصلاً، وتأبّط شرّاً الذي كان وثيق الارتباط بقبيلته (فَهْم) [117/4 و67/10 و20/11]، وإنّما مردّ هذا الخروج أو البقاء هو محور القيم التي جرى الخلاف من حولها، فإذا ما وافقت قيمُ القبيلة ما يؤمن به الصعلوك وافقها وسرى في ركابها، وإن خالفتها خالفها فخرج عليها.

وفي شعر الصعاليك أمثلة واضحة على امتزاج (أنا) الصعلوك (بالآخر/ القبيلة) امتزاجاً مطلقاً لا يبدو معه أبداً أن ثمة ذاتين؛ فهما ذات واحدة هي القبيلة، وآخرُها – في هذه الحال – قبيلة أخرى وليس الصعاليك. وهنا تَمّحي الذوات الفردية لصالح الجماعة، ويتحقق معنى الذات ((ووجودها من خلال الآخر... ويظهر الانتماء

(1) الشّاذّ: المنفرد والنادر والنادّ عن جماعته، و: قومٌ شذّاذ: إذا لم يكونوا في منازلهم ولا في حيّهم. [6/شذذ].

القبلي ليس مجرد ضرورة بقاء، ولكنّه يمثل معنًى وقيمة للبقاء، وإطاراً معنوياً للشخصية الفردية يتجسّم في العرض والكرامة)) [98/1]. والصعاليك في هذا الإطار يمثلون القبيلة وينتمون إليها، وموقفهم منها القَبول والموافقة، لوجود توافقٍ بين قيم الفرد والجماعة. وقد تجلّى موقف الموافقة للقبيلة، وامتزاج الصعاليك بها، في أنماطٍ مختلفة من التعامل بين الفريقين، نذكر منها:

1/1) الفخر بالذات الفردية في إطار القبيلة، والفخر بالقبيلة:

كان للصعاليك الشعراء فخرٌ ذاتيٌّ بأنفسهم، غير أنّه لا يخرج عن دائرة القبيلة؛ ذلك أنَّ الفخر الذاتي بالنفس والآباء والأجداد ليس فخراً فردياً محضاً، فالفرد – في حقيقة الأمر – امتدادٌ لسلسلة متجذّرة في القبيلة، أي أنّ الشاعر ((يعكس من خلال تغنّيه بذاته كثيراً من المظاهر الاجتماعية السائدة، وينقل بذلك إحساس الجماعة من خلال هذه الذاتية)) [55/2]. ومثل هذا الفخر ينطلق من الذات الفردية ليحيط بما حولها من ذوات لها صلة قربى بالشاعر، فيتنامى الإحساس الفردي ليصل إلى إحساس جماعي بهذا الفعل أو هذه القيمة. وما يجعل الشاعر يفعل ذلك هو الميل الفطري إلى إظهار نجاحه في الارتباط بأواصر القبيلة، وتقوية الإحساس بالانتماء إلى القبيلة، بل والشعور بتحقيق الذات. فالغاية من هذا الفخر قَبَليّة وإن كانت الوسيلة فردية. وقد أخذ الصعاليك حظّهم من هذا الفخر الذاتي قليلاً أو كثيراً؛ فهذا مالك ابن حَريم يفخر بشجاعته في نصرة قومه والذَّود عن نسائهم لَمّا دهمهم خطبٌ، فاستُدعي الفرسان وجُهّزت الخيول، فإذا به ينقلب حيّةً فتّاكةً تنقضُّ على الفرسان المغيرين، فتُعمل سُمّها فيهم سيفاً يفلي رؤوس الأعداء. يقول مالك [139/2/12]:

يـــا عَمْـــرُو لَـــوْ أبصَـــرْتَنِي لَرَفَـــوْتَنِي فـــي الخيـــلِ رَفْـــوا
لَلَقِيــــــتَ مِنّـــــي عِرْبِــــــداً يَقْطُـــو علـــى الفُرْســـانِ قَطْـــوا
لَمــــــا رأيــــــتُ نســــــاءَنا يَـــدْخُلْنَ تَحـــت البيـــتِ حَبْـــوا
وسَـــمِعْتُ زَجْـــرَ الخيـــلِ فـــي جَـــوْفِ الظـــلامِ: هَبِـــي، وهَبْـــوَا
أقبلـــــتُ أَفْلِـــــي بالحُســــــا مِ معـــاً رؤوسَ القـــومِ فَلْـــوا(1)

(1) رفوتني: رفاه يرفوه: سكّنَه من الرُّعْب. وكأنّ معنى البيت أنّ ذلك الموقف في الحرب يُخيِّل للرائي فيه أنّ

أمّا الفخر القبلي فهو من أقوى أشكال تعبير (الأنا) عن (موافقة الآخر/ القبيلة) وقبوله؛ إذ إنّه من الأغراض الشعرية التي يتجلّى فيها بوضوحٍ الإحساسُ العصبيُّ بالانتماء إلى القبيلة، والتعصُّب لها [63/2 و 5/3–11]، والإشادة بالقيم الجماعية التي تمثّلها. كما يظهر فيه ارتباط الفرد بالقبيلة بشكل قوي، فتبدو القبيلة هنا مساويةً لنفس الفرد، أو ذاته، ويغدو حديثه عنها كحديثه عن نفسه، وفخره بها كذلك. ورغم أنّ فخر الصعاليك بأقوامهم، أو بلسان أقوامهم، لَم يكن أمراً مألوفاً في شعرهم [173/4]، فإنّنا نَجد بعض أشعارهم جاءت من هذا القبيل، تحاور فيها ((الذات الشاعرة الآخر عبر تأكيد الهوية القبلية)) [98/1]، والارتباط بها. فهذا تأبّط شرّاً الفهميُّ يفخر بقبيلتَيْ فَهْمٍ وعَدْوانَ، ابني عمرو بن قيس بن عَيْلان، فيذكرهما ذِكْراً حسناً؛ إذ يقول فيهما [75/11]:

فَهْمٌ وعَدْوانُ قومٌ إنْ لقيتَهُمُ ... خيرُ البريّةِ عندَ كلِّ مُصَبَّحِ
لا يَفشلونَ، ولا يَطيشُ رماحُهُم ... أهلٌ لغُرِّ قصائدي وتَمَدُّحي[1]

ويقول عروة بن الورد العبسيّ في غزو قومه لبني عامر[66/13–67]:

نحنُ صَبحنا عامِراً إذْ تَمرَّستْ ... عُلالةَ أرْماحٍ وضَرْباً مُذَكَّرا
بكلِّ رِقاقِ الشَّفْرتينِ مُهنَّدٍ ... وَلَدْنٍ مِنَ الخطّيِّ قَدْ طُرَّ أسْمرا
عَجِبْتُ لَهم إذْ يَخنِقون نُفوسَهُمْ ... ومَقتلُهُمْ تحتَ الوغى كانَ أعذرا[2]

الأبطال في حالة فزع وذعر، لهول القتال. العِرْبِد: الحيّة الخفيفة الضئيلة، وهي أخبث الحيّات عضّة. القَطْو: تقارب الخَطْو من النشاط والخِفّة. هَبِي، وهَبْوا: من زجر الخيل، أي: توسّعي وتباعَدي. أَفْلي: فلى الرأسَ بالسيف، فَلْياً وفَلْوًا: ضربه وقطعه.

(1) عَدْوان: هو عمرو بن قيس بن عيلان، وفهمٌ ابنُه. فهما من قبائل قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ. وفهمٌ قومُ تأبّط شرّاً.

(2) صَبَحنا: أتيناهم في الصباح. تمرّست: تعرّضت وعالجت ذلك. العُلالة: ما جاء من الشيء بعد مُضِيِّ أوّله. يريد: نطعنهم طعناً بعد طعن. مُذَكّرا: من قولهم: يومٌ مذكَّر، إذا وُصف بالشِّدَّة والصعوبة وكثرة القتل. الشَّفرتان: حَدّا السيف. اللَّدْن: اللَّيِّنُ من الرِّماح. طُرَّ: سُنَّ. وفي البيت الأول علّة جارية مجرى الزحاف، وهي الثَّلْم، أو الثَّرْم، وهي اجتماع الخرم والقبض (حذف أول الوتد المجموع وثاني السبب الخفيف)، أي حذف فاء (فعولن) ونونها. وهذه العلة قبيحة، ويمكن التخلّص منها بِيُسْرٍ بإضافة واو في أوّل البيت، على الابتداء أو الاستئناف، فينتفي الثلم لانتفاء الخرم، ويبقى القبض، والقبض وحده حسن.

والفخر القبلي هنا واضح من خلال استخدام ضمائر الجمع: (نحن، هم)، فالموقف هنا بين قبيلتين لا فردين، وموقف الشاعر (الصعلوك) هنا يعبّر عن الانتماء والولاء والموافقة للقبيلة، وحمايتها والدفاع عنها. وليس في الأبيات ظهور لذات الشاعر إلا في قوله: (عجبتُ)، وهو لا يعني هنا تأكيد الذاتية بعيداً عن الانتماء، بل هو ظهور طبيعي؛ لأنَّ فِعْلَ العَجَب – بطبعه – ليس عملاً جماعياً، بل هو فردي، فليس (عجبتُ) هنا للخروج على الإجماع القبلي، ولا ينمّ على ذلك، وكل مشهد الأبيات السابقة مشهد جماعي يحكي قوة القبيلة، القوة التي تردع القوة، وتحقق التوازن في الحياة الجاهلية. ويشار هنا – أيضاً – إلى أنّ ضمير الجماعة يتضمّن في بنيته (الأنا / الشاعر)، فالامتزاج هنا بين (الأنا) و (الآخر / القبيلة) بيِّنٌ وواضح، بل إنّهما – في هذه المرحلة – ذاتٌ واحدة اسمها القبيلة.

وفي أخبار قيس بن الحدادية الخزاعي أنَّ قبيلة قيسِ عَيْلانَ رغبت في سَدانة البيت الحرام، وكانت خزاعةُ عليه، فسارت قيسٌ في قبائلَ من العرب تريد أن تنتزعه من خزاعة، وأمّرت عليهم عامر بن الظَّرِب العدواني، فساروا إلى مكّة في جمع لُهام، وخرجت إليهم خزاعة فهزمتهم، ونجا أميرهم عامر بن الظَّرِب[1] على فرس له، فقال قيس يخاطبه [149/14/8 و32/9]:

لقدْ سُمتَ نفسَكَ يا بنَ الظَّرِبْ ... وجشَّمتهم مَنْزلاً قَدْ صَعُبْ
وحَمَّلتهمْ مَرْكَباً باهظاً ... مِنَ العِبءِ إذ سُقتَهُمْ للشَّغَبْ
بِحَرْبِ خُزاعةَ أهلِ العُلا ... وأهلِ الثّناءِ وأهلِ الحسَبْ
هُمُ المانِعُو البَيْتَ والذّائدونَ ... عَنِ الحُرُماتِ جَميعَ العَرَبْ
خُزاعةُ قومي، فإنْ أفتخرْ ... بهم يزكُ مُعْتَصَري والنَّسَبْ
همُ الرّأسُ والناسُ من بعدِهِمْ ... ذُنابى، وما الرأسُ مثل الذَّنَبْ[2]

وهذه الظاهرة ملحوظة عند عروة وغيره من الشعراء الصعاليك، ولعلّها من سمات شعرهم الفنية.

(1) هو عامر بن الظَّرِب العدواني، حكيم وخطيب، ورئيس من الجاهليين، وكان إمامَ مُضَرَ، وحَكَمَها، وفارسها، وهو مِمّن حرّم الخمر في الجاهلية، ومن المعمَّرين، وهو أوّل من قُرِعت له العصا.

(2) سام نفسَهُ: كلّفها وألزمها. جشّمه: كلّفه أمراً على مشقّة. الباهظ: المثقِل المعجِز. الشَّغَب: تهييج الشرّ، واختلاطه. المُعْتَصَر: أصله للجود والكرم، وربّما قصد به هنا المفاخر عامّة.

فالإحساس الفردي بالفخر يعلو ليغدو إحساساً جماعياً بهذا النصر، ويتطوّر إلى فخرٍ بصفات القبيلة ومآثرها. وهذا الامتزاج تعبيرٌ من الشاعر عن أدائه واجبه تجاه القبيلة على أفضل ما ينبغي؛ لذلك تغيب (الأنا) في الأبيات غياباً شبه مطلق، في مقابل الحضور الصريح لاسم القبيلة (خزاعة) مرّتين، وأمّا الحضور الوحيد للأنا فكان في قوله: (خزاعة قومي)، وياء المتكلم هنا للاختصاص، لا للملكية.

2/1) المشاركة في غزوات القبيلة:

ويستلزم العقد الاجتماعي بين (الأنا) و(القبيلة) النصرة والحماية والعون، والمشاركة في الغزوات؛ لذا كان حظُّ قيس بن الحدادية من المشاركة في غزوات قبيلته (خزاعة) كبيراً؛ إذ تذكر له المصادر عدداً من الغارات والمعارك دفاعاً عن (خزاعة) أو ثأراً لها، وفي أبياته في هذه المعارك فخر قبلي غير قليل [249/4 و116/5]. ففي (الأغاني) أنّ بعض الأزديين من قوم قيس بن الحدادية أغاروا على هوازن وبني عمرو بن عامر، فقتلوا وسبَوْا منهم واستاقوا أموالاً، ثم انتقمت هوازنُ فأغارت على حيٍّ من الأزد ومَن والاهم، فقتلوا وسبَوْا واستاقوا أموالاً، فلما علم قيس بذلك جمع قومه فأغار على هوازن، وقتل وسبى واستاق أموالاً، وقال في ذلك [146/14/8–147 و33/9]:

نَحْنُ جَلَبْنا الخيلَ قُبّاً بطونُها ... نراها إلى الداعي المثوِّبِ جُنَّحا
بكُلِّ خُزاعيٍّ إذا الحربُ شَمّرتْ ... تَسَرْبَلَ فيها بُردَهُ وتَوَشَّحا
قَرَعْنا قُشَيْراً في المَحَلِّ عشيّةً ... فلمْ يَجدوا في واسعِ الأرضِ مَسْرَحا
قتلْنا أبا زيدٍ وزيداً وعامراً ... وعُزْوةَ أقصدْنا بها ومُرَوِّحا
وأُبْنا بإبْلِ القومِ تُحدى ونِسْوةٍ ... يُبَكِّينَ شِلْواً أو أسيراً مُجَرَّحا[1]

وتتناصر جموع من قبائل اليمن، فيهم خثعم وزُبيد ومَذْحِج وصُداء ودُعْمِيّ

(1) القُبُّ: من القَبَب، وهو دقّة الخصر وضمور البطن. التثويب: تثنية الدعاء. جُنَّح: جمع جانحة، وهي المائلة، لأنّ الإبل تميل إلى حاديها وتقبل عليه. تسربل: لبس. قشير: بطنٌ من العرب. وهم من هوازن، من قيس عيلان. أقصَدَه: طعنه فلم يُخطئه. يُحدى: يُساق. الشِّلْو: كلُّ مسلوخ أُكل منه شيءٌ وبقيت منه بقيّة. ويريد بتعبيره هنا الأشلاء المفرّقة، فهي بقايا جَسَد. وفي البيت الأوّل – أيضاً– ثلمٌ، كما مرّ في أبيات عروة.

وبنو شِعار وغيرهم، على قوم الشاعر بني الأزد يريدون اجتثاثهم على حين غرّة، فينبري حاجزٌ وقومه للثبات ومقاومة الأعداء، والجود بالنفس والمال، وقتال المغيرين، ونثرهم يمنةً ويسرةً قتلى وأشلاءً، وهو يصف ذلك كلّه بقصيدة يوغل فيها في الانتماء إلى القبيلة بعيداً؛ إذ ينادي باسمها في المعارك، ليبلغ حدّ الامتزاج في أعلى درجاته بهذه القبيلة، بقيامه مقام السيّد الصائن لها، الحاثّ على نصرتها، والقائد انتصارها. يقول حاجز [14/76-78]:

فجاءَتْ خَثْعَمٌ وبنو زُبَيدٍ ... ومَذْحِجُ كلُّها وابنا صُحارِ
وجَمْعٌ مِنْ صُداءٍ قَدْ أتانا ... ودُعْمِيٌّ وجَمْعُ بنِي شِعارِ
فقالوا: يا لَ عبسٍ نازِعُوهمْ ... سِجالَ الموتِ بالأسَلِ الحِرارِ
فقلنا: يا لَ يَزْفَى ماصِعُوهم ... فِرارُ اليومِ فاضحةُ الذّمارِ
فلَمْ أبْخَلْ غَداتئذٍ بنفسي ... ولا فَرَسي على طَرَفِ العِيارِ[1]

2) العزلة عن (الآخر):

لم يكن أحدٌ من الشعراء الصعاليك قد وُلد صعلوكاً، وإنّما كان الصعاليك في أصلهم أفراداً قبليين يجري عليهم ما يجري على غيرهم من الانتماء إلى القبيلة والولاء والتعصب لها، والقيام بشؤونها والمحافظة عليها، ثم عَرَضَ لهم ما أخرجهم عن هذا النظام، وأحدث القطيعة بينهم وبين قبائلهم. وبعض الصعاليك لم يكن خروجه من النظام القبلي غير خطفة حدثٍ واحد – كأن يرتكب جريرة فيُخلع في إثرها–، وبعضهم – كالمتمردين ومحترفي الصعلكة – كان بين انتظامه في القبيلة وخروجه منها أخذٌ وردّ، وفسحة من الوقت، عاشت فيها (الأنا) عزلةً نفسية يمكن لنا أن نعبّر عنها بأنّها (تذبذب انتماء) أو (قلق انتماء).

1/2) قلق الانتماء:

هو ذلك الموقف الذي يبدأ فيه الصعلوك بالشعور بسقوط القبيلة لسقوط القيم

(1) الجِمار: موضع رمي الجمرات بمنى. سجال الموت: المسابقة فيه، وأصل المساجلة: المفاخرة في جريٍ أو سقي. الأسَل: الرِّماح. ماصعوهم: المَصْعُ: الضربُ بالسيف، والمماصعة: المجالدة في الحرب. الصَّفايح: السيوف العراض، واحدها صفيحة.

فيها، أو بمعنى أدقّ: سقوط صورة القبيلة التي ينتمي إليها كما عرفها في ذهنه، فيكون هذا سبب خفوت الانتماء عنده، تمهيداً لانسلاخه عن القبيلة. وهذا السقوط يعني أنّ القبيلة بدأت تفقد هويتها لفقدانها ركيزةً من ركائز ثقافتها، ألا وهي الجانب القيمي في فكر المجتمع الجاهلي وثقافته. هذه العزلة هي مرحلةٌ وسطٌ بين الانتماء والخروج، تبدأ فيها (الأنا) بتقسيم الهوية الاجتماعية وتشكيل (الذات) المستقلة عن المجتمع الذي سيصبح (آخراً)[1] بالنسبة إليها، استناداً إلى تشكيلٍ قِيَميٍّ جديد.

وبالعودة إلى مسألة النسبية في النظر إلى القيمة لدى الجاهليين، نجد أنّ الصعاليك قد عانوا ما عاناه غيرهم، من اختلاف النظرة إلى القيمة فيما يتعلّق بشؤونهم. فعروة بن الورد كان أصغر اثنين لأبيه، وكان أبوه يؤثر الأكبر ((فيما يعطيه، ويقرّبه، فقيل له: أتُؤثرُ الأكبرَ مع غِناه عنك على الأصغر مع ضعفه؟ قال: أترون هذا الأصغر؟ لئن بقي مع ما أرى من شدّة نفسه ليصيرَنَّ الأكبرُ عِيالاً عليه)) [88/3/8]. والشنفرى رُهن هو وأمُّه وخالته عند بعض الفهميين برجل قتله قوم الشنفرى، ولم يفدوهم، فصار إلى الرِّق ّ[32/7]. وقيس بن الحدادية يرى أنّه لا يساوي عند قومه عَنْزاً جرباء جذماء [160/14/8].

كانت أولى القيم التي افتقدها هؤلاء الصعاليك في مجتمعاتهم هي الاعتراف بوجودهم، أو بكونهم بشراً متساوين مع غيرهم، فضلاً على أنّهم فقراء جياع محتقرون منبوذون، يفقدون حقوقاً لا لشيء واضح أو معروف أو مقنع، أو تطبيقاً لشيء عليهم لا يطال الآخرين، في تفرقة واضحة، وتعسُّف لافت للنظر، وهم أمام ذلك إمّا أن يرضَوْا بِما فُرض عليهم من ذلٍّ وحرمان وجوع، أو يثوروا على ذلك الواقع الصعب [69/2]، ويرفضوا ما ينالهم من ضيم. ويصوّر السليك بن السلكة جانباً من واقع معيشتهم في قوله [89/15]:

أشابَ الرأسَ أنّي كُلَّ يومٍ ... أرى لِي خالةً وَسْطَ الرِّجالِ

(1) ليس مصطلح (الآخر The Other) في هذا البحث صفةً ممنوعة من الصرف، فهو هنا يدلّ على مسمّى، أو ذات، لذلك فهو جامد، فينصرف.

يَشُـقُّ علـيَّ أنْ يَلْقَـيْنَ ضَـيْماً ويعجـزَ عـن تَخلُّصـهنَّ مـالي[1]

ويقول عروة بن الورد عن جماعة منهم [51/13]:

رأيتُ بنـي لُبنـى عليهم غضاضـةٌ بيـوتُهُمُ وسْـطَ الحُلـولِ التكنُّـفُ[2]

إنّ هـذه المشـاهد مـن أشـعار الصـعاليك تعبّـر عـن مرحلـة (العزلـة) لـدى (الذات)، من خلال ما بدأت (أنواتهم) ملامسته والتفكير فيه، فقد آثر المجتمع ألاّ يكون عادلاً معهم، وأن يتخلّى عن ثقافته – التي يشكّل التمسّك بالقيم جزءاً كبيراً منها– في علاقته بهم. ومن هنا كان مفهوم (العزلة)، وكانت بداية الشرخ في (الذات الاجتماعية/ الذات الأم) التي لم تعد تحافظ على نفسها بأن تعامل أبناءها بسوية واحدة، فنشأ هذا الشرخ، وأوجد عزلةَ (الذات)، وبدأ يتسع على الراقع، ثم بدأت (الذات) تتقسم لتبرز (أنا أخرى) أو (ذاتٌ أخرى) جديدة تجعل من (الذات الأم) آخراً لها، وتُفقِدُها عموميتها، فلم تعد القبيلة وحدها هي المجتمع الجاهلي، بل أصبح المجتمع الجاهلي هوية كبرى تضم هويتين صغريتين هما: القبيلة والصعاليك.

2/2) تصدّع الرابطة بين الصعلوك وقبيلته:

ومن أظهر ما تتمثّل فيه عزلة (الأنا) عن (الآخر القبيلة) صور تصدُّع الرابطة بين الصعلوك وقبيلته؛ إذ يتجلى الشرخ الذي يُحدثه (الآخر) هنا واضحاً ملموساً لدى (الأنا)، ويتخذ أشكالاً مادية، كالنقد بالكلام، أو الغمز واللمز، أو التعيير بالشكل، أو اللون، أو القامة، أو بأي شيء لصيق بالصعلوك، فعروة – مثلاً – عُيِّر بأمّه أنّها غريبة، فساق لذلك حواراً في بيتين هما قوله [75/13]:

أعيَّرْتُمـوني أنَّ أمّـي نَزيعـةٌ وهـل يُنْجِـبَنْ فـي القـومِ غيـرُ النَّزائـعِ

ومـا طالـبُ الأوتـارِ إلاّ ابـنُ حُـرّةٍ طويـلُ نِجـاد السَّيْفِ، عـاري الأشـاجعِ[3]

---

(1) الرِّحال: جمع رَحْل، وهو منزل الرجل ومسكنه وأثاثه. وقوله: وسط الرِّحال: يكنّي به عن نزول مَنْ يشركْنَ أمّه في لونها وسط منازل الرجال، فيكنَّ بمتناول أيديهم، وطوع إرادتهم، بينما تقيم الحُرّات في دُور لهنّ بعيداتٍ عن أعين الرّجال. عجِزَ عن الأمر: قصّر عنه.

(2) الغَضاضة: الذلّ والمنقصة. الحُلول: منازل القوم وبيوتهم. التكنُّف: اتّخاذ الكُنُف، وهي حظائر من خشبٍ تتّخذ للإبل أو الغنم. أراد أنّهم يقيمون في حظائر الأنعام.

(3) نزيعة: غريبة. فأمّه من نَهْد، وهي ليست عبسية، بل من قضاعة. يُنْجِبُ: يَلِدُ نجيباً. طالب الأوتار:

فالحوار في هذين البيتين تبدؤه (الأنا) بشعور من الخذلان، والأسى على تصدّع الرابطة القبلية بين الشاعر وقومه، والذي سبَّب التصدّع هو (الآخر/ المجتمع القبلي) ممثلاً في واو الجماعة. ولأنّ الموقف غير مُرْضٍ (للأنا) فإنّها لم تحفل بـ (الآخر) كثيراً، غير أنّها لم تَرْضَ أن تكون مثله فتجابِهَ الصدعَ بتوسيعه، وإنّما آثرت أن تُظهر اللِّين وتَجُبَّ ما فعله غيرها، فعادت إلى الدائرة القبلية تتمسّك بقيمها، وتؤكّدها، من خلال مفهوم النجابة، وعدم السكوت عن الثأر، والاستعداد الدائم لحماية القبيلة.

وينزل حبيبٌ الأعلم برجلٍ يقال له (حُبْشِيّ)، من بني زليفة بن صُبْح بن كاهل، وهو هذلي مثله، ومعه أولاده صغاراً، فلم يُضِفْهُ، ولم يَقْرِهِ، ولم يصنع به خيراً، فقال الأعلم يصوّر فعل حُبْشِيٍّ به وبأولاده [326/1/16]:

تروَّحْتُ حُبْشِيّاً فأَتْرَحَ إلْدَتِي كما زُحْزِحَتْ عندَ المبارِكِ هِيْمُها[1]

لقد فعل ابن العمّ الهذلي معهم ما لا يفعله العدوّ؛ إذ إنّه أترحهم بدل أن يفرحهم، فخَالَ الأعلمُ نفسه وأولاده جمالاً سقيمة تُنحّى عن مبارك الإبل الصحيحة حتى لا تعديها. إنّ هذا الموقف يصوّر بدقّة عملية الشّرخ التي تحصل من القبيلة للصعلوك، فما تنحية (حُبشيٍّ) للأعلم وأولاده إلا زحزحةٌ لهم عن مجمل (الذات الأم)[2]، لعلّة أو لغير علّة، ولعلها الفقر، وبذلك يكون (الآخر/ القبيلة) هو الذي بدأ بفصل (الأنا/ الصعلوك) عن (الذات/ القبيلة)، وإقصائه عنها، وسبباً في خروجها وضياعها.

ومن أشكال الشرخ الذي يحدثه (الآخر/ القبيلة) في العلاقة مع الصعلوك تكذيبه فيما يخبر به، وعدم تصديقه، والظنّ فيه أنه يريد السوء لقومه، خلافاً لحقيقة

الساعي وراء ثأره لا يتركه. نجاد السيف: حمائله، وطولها كناية عن طول صاحبه. والأشاجع: عروق في ظاهر الكف، وعاريها يعني أنّه هزيل فلا لحم في يديه يغطّي هذه العروق.

(1) تروّحتُ: رُحتُ إليه، أي أتيتُه رواحا. أترَحَ: أشقى وحَرَمَ. الإلْدَة: الولد. زُحزِحَتْ: زُحِّيَتْ. المبارك: أماكن بروك الإبل. الهِيْم: الإبل التي بها هُيام، وهو داءٌ يأخذها من نبتٍ تأكله، فلا يَرْوى من الماء حتّى تموت. ولعلّه مُعْدٍ فيُعزل الإبل الصحيحةُ عن المصابة.

(2) نريد بها المجتمع الجاهلي، قبل أن يستقلّ الصعاليك بذاتهم، وتصبح القبيلة آخراً.

مُراد الصعلوك بقومه؛ ففي أخبار السليك أنّ بكر بن وائل قد جمعت جيشاً تريد الإغارة على قومه بني تميم، فرأى طلائعها وهو بعيد عن قومه، وكان عدّاءً، فبلغ قومه وأنذرهم، فكذّبوه لظنّهم أنّ المكان بعيد، وأنّ بكراً لن تبلغهم. يقول السليك [62/15]:

يكذّبني العَمْرانِ: عَمْرو بن جُنْدبٍ وعمرُو بنُ سعدٍ، والمكذَّبُ أكذبُ
سعيتُ، لَعَمْري، سعيَ غير معجِّزٍ ولا نأنأٍ، لو أنَّني لا أُكَذَّبُ[1]

إنَّ هذه المعاملة السيئة، والابتداء بالظن السيئ لِما يأتي به الصعلوك من خير للقبيلة، تدفعه إلى الضيق بهذه القبيلة التي لا تصدقه، والانزعاج منها، كأنها لا تعترف به، ولا تعدّه واحداً منها. وتجسّد هذه الإشكالية في المجتمع الجاهلي صراعاً روحياً قيمياً بين (الأنا) و(الآخر)، يبرز فيه التعارض بين رغبةِ (الأنا) في تحقيق ذاتها، بتمسّكها بالقيم في رؤيتها للحياة، والخللِ الذي يمثله (الآخر) في النظر إلى هذه القيم بمفهوم (النسبيّة)، فكلّما أساء (الآخر) إلى (الأنا) قابلته بالتضحية للعودة إلى إطار القبيلة. ولكنَّ هذا الأمر لا يمرُّ من غير أن يكون فيه شعور بتصدّع الهوية، وفقدان مغزى الانتماء القبلي، وإحساس بالمرارة والألم، وهذا ما ينتج منه عالم من الغربة النفسية عن هذا المجتمع الذي يكبت (الأنا) ويقمعها، ويمنعها أن تبوح بما تعلّمته أصلاً من هذا الآخر، فبدأت مرحلة الشعور بالاغتراب نتيجة افتقاد الشعور بالذات في مجتمع يقوم على الانتماء إلى القبيلة، وتقديم القبيلة على الفرد[94/1 و104].

3) مقاومة الآخر (الخروج عنه):

وتتطور العلاقة بين الصعاليك والمجتمع الجاهلي بعد مرحلة (العزلة عن الآخر) إلى مرحلة (الخروج عنه)، والانفصال التامّ (بذاتهم) عنه. وقد كان خروج الصعاليك من قبائلهم نقطة التحول الأبرز في حياتهم؛ إذ مثّلت لهم حياة الصعلكة منطلقاً جديداً بعد أن فقدوا الارتباط بمجتمعاتهم، وكان هذا المنطلق الجديد نتيجة لموقف صعبٍ عاشوه، هو موقف فَقْد الارتباط بالحياة والناس والقبيلة والوطن. إنّ

(1) المعجِّز: المثبِّط للهِمم. النأنأ: العاجز، الجبان، الضعيف. لو: للتمنّي.

الإنسان في هذه الحالة لا يكون أمامه إلا اختياره الذاتي النابع من موقف حرّ. ولعلّ الصعوبة الحقيقية في هذا النوع من الحرية ليس في هدم كلّ شيء، وإنّما في القدرة على التغلب على هذا الوجود الميئوس منه، وانتشال النفس من هوّة القنوط إلى فسحة الأمل. لقد اختارت حرّيّتُهم ذاتَهم الجديدة، وحياةَ التصعلك، وانفصال (الأنا)، فكان ذلك الحدّ الفاصل بين حياتهم القَبَلية بما فيها من توافق اجتماعي، وحياتهم المتصعلكة. وقد اتّخذ خروج الصعاليك عن (ذات القبيلة/ الذات الأمّ) إلى (الذات الجديدة/ الصعلكة) أشكالاً عدّة، نذكر منها:

1/3) الخلاص من (الآخر):

لقد سعت (الأنا) جاهدة إلى الحفاظ على الآصرة القبلية ما استطاعت، غير أنّها قد لا تفلح في إيقاف تداعي الآصرة القبلية بينها وبين (الآخر)، وغالباً ما لا تفلح، فتواصلُ انسحابها إلى عزلتها بحثاً عن الخلاص من هذا الوضع المقلق المؤرّق. ويكمن الخلاص لديها في تطوير ذاتها، ومجابهة إساءة (الآخر) بالردّ عليه، والخروج منه، وتمجيد الذات وأفعال الصعلكة؛ إلاّ أنّ هذا الخلاص لم يكن سهلاً، وتكوين الذات الجديدة (الصعاليك)، وبعثها من تحت ركام قيم المجتمع، لم يمرَّ من غير ثمن، فقد خيضت تجربة قاسية من المتناقضات، فيها حزن وفرح، وعفو ومجازاة، وسكوت وردّ، وتجميع وتفرقة، وأنس ووحشة. وقد كان آخر مراحلها أن ناصبت الذات الجديدة آخرها العداء، وخرجت عليه؛ إذ لم تعد ترى أملاً في تغييره. ففي أخبار عمرو بن برّاقة أنّ رجلاً من هَمْدان يُقال له حَريم[1] أغار على إبل له وخيل، فاستاقها، فأتى عمرٌو امرأة اسمها (سلمى) كانت بنت سيّدهم، وكانت حكيمة يصدرون عن رأيها، فأخبرها بفعل حريم، وأنّه يريد الإغارة عليه ليستردّ ماله، فخوّفته حريماً، وقالت له: لا تتعرّض لتلفات حريم، فتذهب نفسك هلكةً على يديه. فخالفها عمرو، وأغار عليه، واستردّ ما سلبه، واستاق فوقه مال حريمٍ كلّه. ثم إنّ حريماً جاءه يطلب إليه أن يردّ عليه ماله، فأبى عليه، فانصرف حريمٌ خائباً. وفي ذلك يقول عمرٌو [14/98–101 و8/21/175]:

(1) هو حريم بن مالك، أبو الصعلوك مالك بن حَريم، كان صعلوكاً أيضاً.

تقـولُ سُـليمى لا تَعَـرّضْ لِتَلْفَـةٍ ... ولَيلُـكَ عَـنْ ليـلِ الصَّـعاليكِ نـائمُ
وكيـفَ ينـامُ اللَّيْـلَ مَـنْ جُـلُّ همِّـهِ ... حُسـامٌ كلـونِ المِلْـحِ أبـيضُ صـارمُ
غَموضٌ إذا عَضَّ الكريهةَ لَم يَدَعْ ... لهـا طَمَعـا، طَـوْعُ اليمـينِ مُـلازِمُ
أَلَـمْ تعلمـي أنَّ الصَّـعاليكَ نـومُهُمْ ... قليـلٌ إذا نـامَ الخَلِـيُّ المسـالِمُ
إذا اللَّيْـلُ أدْجَـى واكفهَـرَّ ظلامُـهُ ... وصـاحَ مِـنَ الأفـراطِ بُـومٌ جـواثِمُ
ومـالَ بأصـحابَ الكَـرى غالباتُـهُ ... فـإنّي علـى أمـرِ الغَوايَـةِ حـازِمُ
كـذبْتُمْ وبيـتِ اللهِ لا تأخـذونَها ... مراغَمـةً مـا دامَ للسَّـيْفِ قـائمُ[1]

فنلحظ في الأبيات السابقة تطوّر (الأنا) منذ أن قرّرت الخروج على النظام القبلي ومخالفة رأي السيّد، فـ (سليمى) تشير على (الأنا) بالتصرّف السلبي القائم على الاستسلام لما وقع، والاستغناء عن الخسارة بما بقي لم يُخسر. لقد أشارت (سليمى) على (الأنا) أن تقعد ولا تفعل فِعْلَ حريمِ الصعلوك، فهي ليست صعلوكاً حتى تجازيه بالمثل، بل إنّها قد لا تقدر عليه، ولديها ما تستغني به عمّا أخذه (الآخر). وكان العرف الاجتماعي يقضي بإجابة السيّد إلى طلبه، بالامتثال إلى ما يقوله، إلا أنّ (الأنا) لم تستطع الاستمرار في ملاينة (الآخر) وهو يستمرّ في الاعتداء، فقرّرت أن تطوّر نفسها وتجاريه بأن تفعل فعله، وتجازيه من جنس عمله؛ فإذا بها تنسحب من (القبيلة) وتنضمّ إلى (الذات الجديدة/ الصعلكة)، وتصرّح بذلك من خلال: ((أَلَمْ تعلمي أنَّ الصعاليك...))، فقد غدت (الأنا) صعلوكاً، وتخلّصت من (القبيلة) وأسر التسلّط العُلوي من السادة بأنِ افعلْ ولا تفعل.

(1) التَّلْفة: الهَلْكة. الصعاليك: أراد بهم هنا: الفقراء. ليلك عن ليل الصعاليك نائم: أي أنت نائمٌ مستغنٍ عن السُّرى بغِناك. وجعل الفعل لليل مجازاً. الهمّ: ما يهتمُّ له الإنسان. كلون الملح: أبيضُ صقيل. والحسام: القاطع من السيوف. وكذا الصارم. الغَموض: الذي يذهب في الشيء فيختفي فيه، كالخَلخالِ يَغْمُضُ في الساق لسِمَنِها، والكعبِ إذا غطّاه اللحم فأخفاه. ويراد به: السيف الماضي في الضريبة، المنغمس فيها. الكريهة: الشّدّة. طوع اليمين لازم: ملازمٌ للكفّ، متأتٍّ للضرب. يريد إدمانه على إمساكه والضرب به. الخَلِيّ: الخالي من الهموم. أدجى الليل: أظلم. اكفهرَّ: تراكب. الأفراط: جمع فُرُط، وهو جُبيل صغير. جواثِم: رابضة. غالبات الكرى: نَعَساته المستولية على الإنسان. الغواية: الضلالة. أراد: إذا كان أمرٌ مشكلٌ يُضَلُّ في مثله فأنا حازمٌ ماضٍ عليه. مراغَمةً: مغاضبةً وقسراً. وقائم السيف: رأسه. أراد: لا يستردّ حريمٌ إبله ما قدرتُ على إعمال سيفي.

2/3) الارتحال عن (الآخر):

كانت الأرض مصدر الحياة الأهمّ في حياة الجاهليين، وقد اقترنت حياتهم بها إلى حدٍّ بعيد، كما قُرنت الأوطان ومنازل القبيلة في أذهان الشعراء الجاهليين بساكنيها من الأهل والأقارب والأصحاب. غير أنَّ هؤلاء الساكنين في الوطن، الذين خلعوا رابطة القبيلة بينهم وبين الصعاليك، لم يعودوا مرغوباً فيهم، ولهذا فإنَّ أوطانهم لَم تعد مرغوبة أيضاً؛ ذلك أنَّ تصرُّف الساكنين (الآخر/ القبلي) هذا أورث (الذات) هنا جانباً من أكثر الجوانب التي عايشتها صراعاً واحتداماً وألماً، إنّه صراع الشعور بالمعاداة [282/5]؛ إذ غدا كلّ الناس أعداء للذات بفعل (الآخر) نفسِه؛ لذا كانت الدعوة إلى الارتحال عن المكان الذي يحلُّ فيه الآخر دعوةً مستمرةً لدى الصعاليك؛ لأنّها تمثل مهرباً لذات الصعلوك من غربة الواقع المؤلمة، وحالة الحصار في الزمان والمكان، اللّذَيْنِ يعيش فيهما الصعلوك ضمن دائرة القبيلة، من خلال زمان ومكان جديدين، يُترك تحديدهما لأفق الرحلة المفتوح نحو المغامرة، والهرب من مشهد الجدب في الحياة، الذي لحق بذات الصعلوك من مواقف التعامل السلبية التي سبقت الإشارة إليها، فرحلة الصعلوك هرب إلى المجهول من معلوم سيّئ يبدو المجهول معه مقبولاً، أو خِياراً أفضل، ولاسيما بعد انفصام عرى الرباط القبلي ومحوه في المكان الحالي. يقول عروة بن الورد [13/72-73]:

وسائلةٍ: أينَ الرحيلُ؟ وسائلٍ ... ومَن يسألُ الصُّعلوكَ أينَ مذاهِبُهْ؟
مذاهبُهُ أنَّ الفِجاجَ عريضةٌ ... إذا ضَنَّ عنه بالفِعالِ أقاربُهْ
فلا أتركُ الإخوانَ – ما عِشْتُ – للرَّدَى ... كما أنّه لا يتركُ الماءَ شاربُهْ(1)

إنّ ابتداء الأبيات بواو (رُبّ) دليل على يأس الصعلوك وشكّه حتى من مجرّد وجود مَنْ يسأل عنه، فلعلّ أحداً يسأل، ولعلّه لا يكون غيرَ ألصقِ إنسانٍ به –أي زوجته–، التي يُظَنُّ أنّ كثيراً من أفعالها وتعاطفها مع زوجها يكون نابعاً من العِشرة، أو العطف، أو الواجب الأخلاقي والاجتماعي، وليس من باب الاهتمام المجرّد

(1) المذاهب: الطُّرق. الفِجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق الواسع بين جبلين. لا يترك الماء شاربه: كناية عن التمسُّك والثّبات، لأنّ شارب الماء يستحيل أن يترك شربَه.

بصاحب الأمر، أو من باب الموافقة (لأنا) الصعلوك. إنَّ الصعلوك هنا يقدِّم مستويين من مستويات الاغتراب في هذه الأبيات: مستوى الشكّ، ومستوى الاهتمام المفروض، أو المشوب بدافع أخلاقي أو اجتماعي، ليعبّر عن مدى يأسه من الحال التي وصل إليها، التي ألجأته إلى الخروج هائماً في الفجاج العريضة يرى فيها بديلاً من ضَنِّ أقاربه عليه، فيرتحل وقد حسم أمره بالخروج عنهم إلى (الإخوان)، وهم (الذات الجديدة) التي انتمى إليها الصعلوك، ووجد فيها ذاته، فلزمها ما عاش ((كما أنّه لا يتركُ الماءَ شاربُهْ)). أمّا الشنفرى فكان صاحب الحظ الأوفر في الخروج من المكان هرباً من سوء معاملة الساكنين فيه، فقد ارتحل بين الإواس من بني الأزد، وفَهْمٍ، وبني سَلامان، ثم اضطُرَّ إلى ترك الجميع إلى التّصعلك والفِجاج العريضة. ولَمّا حانت منيّته سألوه: أين نقبرك؟ فقال [52/7]:

لا تَقْبُروني، إنَّ قَبْري مُحَرَّمٌ عليكمْ، ولكنْ أبشري أمَّ عامرِ

فهو لا يرغب في القرار في وطن أبداً، وإن كان بعد الموت، وكأنّه ألِفَ حتى غربةَ ما بعد الموت، فلم يُرِدْ وهو مَيْتٌ أن يكون له قرار في أرض، إنّه منذ أن اتّخذ السباع أهلاً له صارت بلادُهم وطنَه، وحيثما ارتحلوا ارتحل معهم، ولا قرار لهؤلاء (الأهلين) في مكان واحد؛ لذلك فهو مرتحلٌ معهم، وإذا ما قرّر أن يكون له قَرارٌ فليكن بـ(أبشري أمَّ عامر).

3/3) مهاجمة (الآخر/ القبيلة):

ثم تطوّر الأمر بالذات من العزلة إلى المقاومة ليبلغ حدّها الأقصى، وهو السعي إلى نفي (الآخر) ومحو وجوده لتثبيت وجودها، أو انتقاماً لها واسترداداً لحقّها المهدور من قبل. فهذا الشنفرى يعيش في بني سَلامان زمناً، يظنُّهم قومه وقبيلته، و((لا تحسبه إلاّ أحدهم)) [10/7 و176/21/8]، حتى كانت قصّته المشهورة مع الفتاة السَّلامانية، فخرج منهم وهو ينوي الشرّ بهم. وفي الأخبار قصص عن قتله عدداً منهم بلغ المئة – كما يفيد الخبر –، وقد خرج مرّة في ثلاثين رجلاً يريدون الغارة على بني سَلامان، فأصابوا فيهم وقتلوا، وفي ذلك يقول [29/7 و41–42]:

جَزَيْنا سَلامان بن مُفْرِجَ قَرْضَها بِما قَدَّمَتْ أيديهمُ وأزلَّتِ
شَفَيْنا بعبدِ اللهِ بعضَ غليلنا وعوفٍ لدى المَعْدى أوانَ استهلَّتِ[1]

أمّا قيس بن الحدادية فقد خلعته خزاعة في سوق عكاظ، وكان أكثرَهم سعياً في خلعه بطنٌ منهم يقال لهم: بنو ثُمَيرِ بنِ حَبَشيّةَ بنِ سَلول، فأراد قيسٌ الانتقام منهم، فجمع شذاذاً من العرب وصعاليك وفتاكاً من قومه وأغار عليهم، فقتل منهم واستاق أموالاً [8/14/145 و9/32].

وأمّا السليك بن السلكة فكان حظّه من الإغارة على (الآخر/ القبلية) كثيراً، لعدد من الأهداف؛ فقد نصر صعاليكَ في بعضها، وانتقم لنفسه في أخرى، وأغار ابتداءً على قبائل في مواطن ثالثة[2]. ففي أخباره أنّه خرج يوماً في فتيان من بني سعد وبني عبد شمس، ثم انقطعت عنهم المياه، فعاد مَنْ كان معه وتركوه في نفر قليل، ومعه رجل من بني حرام يقال له: صُرَد، فساروا، حتى دنوا من بلاد خثعم[3]، فضلّت ناقة صُرَد، فخرج يبحث عنها، فأسرته خثعم، وحاولوا اللحاق بالسليك، لكنه ثبت لهم وقاتلهم وهزمهم، وأعاد لصُرَدٍ ناقته، وأعاده إلى بلاده، وقال في ذلك [15/59–61]:

فما ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حتى أريتُهُ قُصارَ المنايا، والفؤادُ يذوبُ
وضاربتُ عنه القومَ حتى كأنه يُصعِّدُ في آثارِهِمْ ويَصُوبُ
وقلتُ له: خُذْ هَجْمةً حِميريَّةً وأهلاً، ولا يَبْعُدْ عليكَ شُرُوب[4]

4/3) الانتماء إلى قبائل أخرى:

ومن صور تأكيد انفصال (الأنا) عن (الآخر/ القبيلة) في شعر الصعاليك

(1) وعبد الله وعوف من بني سَلامان بن مفرّج. جَزَيْنا: عاقبنا، وأصل الجزاء: المكافأة على عملٍ حسن. قرضَها: من قولهم: العوارف عند الناس قُروض. فكأنّه جعل إيذاءهم له عملاً يُقرض، فيجب ردُّه والمجازاة به. أزلّت: قدّمت. الغليل: العطش إلى الثأر. المَعْدى: موضع القتال. استهلّت الحرب: ارتفعت أصواتها.

(2) نذكر مثلاً على ذلك خروجه في فتيان من بني سعد وبني عبد شمس، وإغارتهم على خثعم [15/55].

(3) خثعم من قبائل اليمن، تنسب إلى خثعم بن أنمار بن إراش، وتنتهي إلى سبأ.

(4) ذرَّ قَرْنُ الشمس: أشرقت. الفؤاد يذوب: من شدة المعارك التي خاضوها ليلاً حتى استنقذوه. يُصَعِّدُ ويَصُوب: كناية عن اختلاط الأمر ما بين هبوط وارتفاع، وهو من تعابير العرب عن الإحاطة بالأمر واستنفاده. الهجمة: الأربعون من الإبل. شُرُوب: ج شارب.

الفخر بالانتماء إلى قبائل أخرى عاشوا فيها، أو أجارتهم، أو تحالفوا معها. فهذا حاجز الأزدي من بني سَلامان يفخر بعلاقة النسب الجديدة بينه وبين بني مخزوم من قريش، فهم حلفاؤه، ولا يخذلونه إذا استنصر بهم، بل يسارعون إلى نجدته والذود عنه. يقول حاجز [80/14 و209/13/8]:

قومي سَلامانُ إمّا كُنْتِ سائلةً ... وفي قريشٍ كريمُ الحِلْفِ والنّسبِ

إنّي متى أدعُ: مَخزوماً، ترى عُنُقاً ... لا يَرْعَشونَ لضَرْبِ القَوْمِ من كَثَبِ[1]

ولقيس بن الحدادية موقف مماثل؛ إذ إنّه لَمّا خلعته خزاعة نزل ببطن منهم ((يقال لهم: بنو عَدي بن عمرو بن خالد))، فآوَوْهُ وأحسنوا إليه، فقال يمدحهم [152/14/8 و34/9–35]:

جزى الله خَيْراً عن خليعٍ مُطَرَّدٍ ... رجالاً حَمَوْهُ آل عَمْرِو بن خالدِ

مَصاليْتُ يومَ الرَّوْعِ، كَسبُهُم العُلا ... عِظامُ مَقيلِ الهامِ، شُعْرُ السّواعِدِ

أولئكَ إخواني وجُلُّ عشيرتي ... وثَروتُهُمْ، والنَّصْرُ غيرُ المحارِدِ[2]

الخاتمة

قامت (ذات الصعاليك) على بلورة ذاتٍ جديدة للإنسان الجاهلي، قوامها إحياء القيم التي فقدها المجتمع أو تخلى عنها، وقد واجهت هذه الذات الجديدة أنماطاً من التعامل مع (الآخر/ المجتمع القبلي)، بدءاً من قَبوله وموافقته والانتماء إليه، ومروراً بالعزلة عنه والشعور بقلق الانتماء إليه، وانتهاءً بمقاومته والخروج عنه وتشكيل (الذات الجديدة). وقد أكّد الصعاليك – كثيراً – ارتباطَهم بقبائلهم قبل مرحلة الصعلكة، وإصرارَهم على الحفاظ على رابطة القبيلة وعصبيتها والانتماء إليها، بأشكال عدّة، شعوراً منهم بالاندماج في (الذات الأم) الواحدة، ورفضاً للخروج عليها أو تقسيمها.

(1) سَلامان: هو ابن مفرِّج الأزدي، المذكور في شعر الشنفرى، وإليه ينتسب قوم حاجز الأزديون. العُنُق: الجماعة الكثيرة من الناس. رَعَشَ (بفتح العين وكسرها): اهتزّ واضطرب.

(2) النَّوْك (بالفتح والضّمّ): الحمق. المَزاوِد: جمع مِزْوَد، وهو وعاء الزاد. حَدِبَ: عَطَف. الأروع: من يعجبك بحسنه وشجاعته. المصاليت: جمع مِصْلات، وهو الماضي في الأمور. مقيل الهامة: مستقرّ الرأس، أي: العنق. شُعْر: جمع أَشْعَر، وهو الكثير الشعر. الثروة: كثرة العدد بين الناس. غير المحارِد: غير المنقطع، وأصله من حارَدَتِ الإبل حَرْداً وحِراداً، أي: انقطعت ألبانها، أو قلّتْ.

وتجلّى ذلك في قصائدَ أو مقطوعاتٍ نقلت عنهم، جمعوا فيها بين ذواتهم وقبائلهم، وتحدّثوا بلسان الجماعة القبلية، وناصروها، ودافعوا عنها، وكانوا خيرَ مُمثّلٍ للفرد القبلي في هذه المرحلة؛ لكنّ (الآخر) ما فتئ يناصبهم العداء، ويعاملهم بسوء النّيّة، فأحدث بينه وبينهم عزلة دفعتهم إلى محاولة الخروج عليه، والاستقلال (بذاتهم) بعيداً عنه.

المراجع

1. **عشّا** علي مصطفى، 2001- جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 76، 31.
2. **بو بعيو** بو جعة، 2001- جدلية القيم في الشعر الجاهلي. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 137.
3. **عشّا** علي مصطفى، 2001- جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 83، الجزء3، 28.
4. **خليف** يوسف، د.ت . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، 352.
5. **حفني** عبد الحليم، 1987- شعر الصعاليك: منهجه وخصائصه. الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 435.
6. **طريفي** محمد نبيل، 2003- شرح ديوان الشنفرى. الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، بيروت، 111.
7. **الأصفهاني** أبو الفرج، 1371هـ/ 1952م- الأغاني. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 24 جزءاً.
8. **الضامن** حاتم، 1411هـ/ 1990م- عشرة شعراء مقلّون. جامعة بغداد، 300 صفحة.
9. **ابن منظور**، 1419هـ/ 1999م- لسان العرب. عني به: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 21 جزءاً.

10. **ضيف** شوقي، د.ت . العصر الجاهلي. الطبعة السابعة، دار المعارف، مصر، 436.
11. **شاكر** علي ذو الفقار، 1419هـ/ 1999م- ديوان تأبّط شرّاً وأخباره. الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 424.
12. **طريفي** محمد نبيل، 1425هـ/ 2004م- ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي. الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، جزآن.
13. **ابن السكّيت**، 1415هـ / 1995م- شعر عروة بن الورد. تحقيق: محمد فؤاد نعناع، الطبعة الأولى، مطبعة الخانجي، القاهرة، 192.
14. **الجبوري** يحيى، 1408هـ/ 1988م- قصائد جاهلية نادرة. الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 268.
15. **الضناوي** سعدي، 1415هـ /1994م- ديوان السليك بن السلكة. الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، سلسلة (شعراؤنا)، بيروت، 118.
16. **السكري** أبو سعيد، د.ت . شرح أشعار الهذليين. تحقيق: عبد الستّار فرّاج أحمد، مراجعة: محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة ومطبعة المدني، القاهرة.